

نقلة اجتماعية

لم يكن بين الرافعي وقراءه صلةٌ ما قبل أن يبدأ عمله في الرسالة ، ولم تكن أصوات القراء تصل إليه من قريب أو من بعيد ، إلا طائفة تربطه بهم صلوات خاصة كان يكتب إليهم ويكتبون إليه ؛ فلما اتصلت أسبابه بالرسالة ، أخذت رسائل القراء ترد إليه كثيرة متتابعة ، حتى بلغ ما يصل إليه منها في اليوم ثلاثين رسالة أو تزيد . وأستطيع أن أقول غير مبالغ : إن الرافعي قد عرف من هذه الرسائل عالماً لم يكن له به عهد ، وانتقل بها نقلة اجتماعية كان لها أثر بليغ في حياته وتفكيره وأدبه . وإذا كان مؤرخو الأدب قد اصطالحوا على وجوب دراسة البيئة التي يعيش فيها الأديب والتطورات الاجتماعية التي أثرت فيه ، فإن مما لا شك فيه أن الحقبة التي كان الرافعي يكتب فيها للرسالة — كانت تطوراً جديداً في حياته الاجتماعية نقله إلى عالم فيه جديد من الصور وألوان من الفن تبعث على التأمل وتوقظ الفكر وتجدد الحياة . وقد عاش الرافعي حياته بعيداً عن الناس لا يعرف عنهم ولا يعرفون عنه إلا ما ينشر عليهم من رسائله ومؤلفاته ، فكان منهم كالذي يتكلم في (الراديو) يسمعون عنه ولا يسمع منهم ، وليس له ما يستمد منه الوحي والإلهام إلا ما يجيش به نفسه ويختلج في وجدانه ، غير متأثر في عواطفه الإنسانية بمؤثر خارج عن هذه الدائرة المغلقة عليه

وكان هو نفسه يشعر بهذه القطيعة بينه وبين الناس ، وكان له من علته سبب يباعد بينه وبينهم ؛ فمن ذلك كان يسره ويرضيه أن يجلس إلى أصحابه القليلين ليستمع إليهم ويفيد من تجاربهم ، ويُحصّل من علم الحياة وشئون الناس ما لم يكن يعلم ...

ثم بدأ يكتب للرسالة فعرفته طائفة لم تكن تعرفه ، وتذوق أدبه من لم يكن يسينه ؛ وكانت الموضوعات التي يتناولها جديدة على قرائها ، وجدوا فيها شيئاً يعبر عن شئ في نفوسهم ؛ فأخذت رسائل القراء تنثال عليه ، فانفتح له الباب إلى دنيا واسعة ، عرف فيها ما لم يكن يعرف ، ورأى ما لم يكن يرى ، واطلع على خفيات من شئون الناس كان له منها علم جديد ... فكان من ذلك كمن عاش حياته بين أربعة جدران : لا يسمع إلا صوته ، ولا يرى إلا نفسه ؛ ثم انفتح له الباب فخرج إلى زحمة الناس ، فانتقل من جو إلى جو ، ومن حياة إلى حياة ...

هي نقلة اجتماعية لا سبيل إلى إنكار أثرها في الراجعي وأدبه ، وإن لم يفارق بيئته ومنزله وأهله .

والآن وقد وصلت إلى جلاء هذا المعنى كما شاهدته وعانيت أثره ، فإني أحدث عن ضرب من هذه الرسائل التي كانت ترد إلى الراجعي من قرائه ، ليعرف الباحث إلى أي حد تأثر الراجعي بها ، وأي المعاني ألهمته وقدحت زناد فكره ؛ وإذا كانت بعض (الظروف الخاصة) قد حالت بيني وبين الاطلاع على كل هذه الرسائل التي خلفها لثم لي بها دراسة التاريخ ، فحسبي ما أقرأني الراجعي منها في أيام صحبته ، وما اطلمت عليه بنفسى من بعد ...

نستطيع أن نردّ الرسائل التي كانت ترد على الراجعي إلى أنواع ثلاثة :

١ — رسائل الإعجاب والثناء .

٢ — رسائل النقد والملاحظة .

٣ — رسائل الاقتراح والاستفتاء والشكوى .

أما النوعان الأولان فليس يعنينا منهما شئ كثير ، وحسبي الإشارة إليهما ؛ على أنه ليس يفوتني هنا أن أشير إلى أن أكثر ما ورد إلى الراجعي من رسائل الإعجاب ، كان عن مقالاته في الزواج ؛ وكان أكثر هذه الرسائل من الشبان والفتيات ، وقلما كانت تخلو رسالة من هؤلاء أو هؤلاء ، من شكوى صاحبها

أو صاحبها وتفصيل حاله . وأطرف هذه الرسائل هي رسالة من آنسة أديبة كتبت إلى الرافعي تسأله أن يكتب رسالة خاصة إلى أبيها — وقد سمّته في رسالتها — يعيب عليه أن يعضل ابنته ويرد الخطاب عن بابه حرصاً على التقاليد ...
... ثم رسالة من (مأذون شرعي) يحصى فيها للرافعي بعض ما مر عليه من أسباب الطلاق في الأسر المصرية ، ويردها كلها إلى سوء فهم الناس لمعنى الزواج وحرصهم على تقاليد بالية ليست من الدين ولا من المدنية ، وفي هذه (الإحصائية) الطريفة قصص خليقة بأن تنشر لو وجدت من يحكيها على أسلوب فني يكسبها معنى القصة .

وأعجب ما قرأت من رسائل النوع الثاني ، رسالة جاءته بعقب نشره مقالة «الأجنبية» عليها خاتم بريد (شطانوف) فلما فض غلاقتها لم يجد فيها إلا صفحات ممزقة من عدد (الرسالة) التي نشرت فيه القصة ومعها ورقة فيها هذه الأسطر :
سيدي الأستاذ :

إن كان لا بد من رد فهذا هو خير رد ، وإن كان لا بد من كلمة فكلمتنا إليك .
هي تلك الكلمة التي ختمت بها هذا الكلام المردود إليك «مصري»

ومن النوع الثالث من هذه الرسائل ، كان استمداد الرافعي ووجيه وديناه الجديدة ، وإلى القراء نماذج مختلفة من هذه الرسائل :

١ — هذه رسالة فتى في العشرين ، يكتب إلى الرافعي من الأسكندرية يقول :
«أستاذي الكبير

«ليس لي الآن إلا ربي وأنت يا أستاذي، وإن من حقاك علي أن أسألك حتى عليك وقد هداني الله إليك .

«... قرأت وتدارست ما كتبته عن الانتحار ، فماذا تقول في امرئ علم عمن الجنة تحت أقدامها أنها فسقت وزلت . فهو يتحين الفرصة ليقتلها . إنني أبكي بأستاذي إذ أعيد هذا القول ، أبكي دما . لي أخوة وأنا أكبرهم ، ولا أخاف

إلا أن لي أختا . وأبي — غفر الله له — ليس له ما يكون للرجل من معاني
الرجولة ليضمن ألا يكون في بيته شيء مما قد كان ...

« الشك يساورني منذ أكثر من عامين : واليوم فار التنور ، إذا سمعت
أنها حبل . ووقع في يدي ما ملأني يقينا بتصديق إثمها ؛ ولقد همت أن أفعل
مالا يفعل ، وأنا أخشى ألا يتداركني حكمك .

« ... ماذا تقول يا أستاذي ؟ أنا الصابر أبدا كاد الصبر يتلاشى من نفسي ،
أنا المطمئن أبدا كاد أمرى يضيع من يدي . أنا كالمجنون لا يبقيني شبه عاقل
إلا أنت ، فإذا تقول يا أستاذي وبماذا تحم ؟ يكتبها الله لك فتداركني برأيك ...
« ولك مني شكر من يسأل الله ويسمى إلى أن يكون بنفسه وحياته من حسنات
تريبتك ، وأن يكون في اليوم الآخر كلمة من سطر من كتابك القيم ...
« ومعدرة لي من لدنك إن أغفلت الآن إسمي »

في ١٤/٥/١٩٣٥

٢ — وهذه معلمة في إحدى مدارس الحكومة ، حامت حولها ريبة فوقفتها
وزارة المعارف حتى تحقق أمرها ، فكتبت إلى الرافي تسأله أن يعينها بجاهه حتى
تعود إلى عملها الذي تعمل منه أباؤها ؛ فيشفق عليها الرافي ويسمى سميه لبراءتها ...
وعادت إلى عملها ؛ وحفظت الجميل للرافي ، فكانت تكتب إليه كل أسبوع رسالة
تبثه خواطرها وتصف له من أحوالها وما تعمل ؛ وتكثر رسائلها إلى الرافي حتى
يزول الحجاب بينهما ، فتصرح له بما لا تصرح فتاة ، ويثول أمرها في النهاية
أن تكتب إلى الرافي بأنها عاشقة ... وأن معشوقها الصغير — التلميذ في إحدى
المدارس الصناعية بالقاهرة — لا يعلم ما تكن له ؛ هي تلقاه ، وتماشيه ، وتخلو به
خلوات « بريئة » ؛ ولكنها لم تكشف له عن ذات نفسها ، وتأكلها النار
في صمت ... ! وتقول في رسالتها إلى الرافي :

« ... فدبرني ياسيدي في أمرى ؛ قلبي يحس أنه يحبني ، لقد قالتها لي عيناه ،
ولكنه لم يتحدث إلي ، ولست أجد في نفسي القدرة على التصريح له ... »

وتتوالى رسائلها إلى الرافعي تصف له ما تلاقى من الوجد بحبيبتها الذي تكبره بسنوات ، ويقراً الرافعي رسائلها فيتسم ، ويتناول قلمه الأزرق فيثور فيها علامات يشير بها إلى مواضع وققر تلهمه معاني جديدة وفكراً جديداً ؛ ويشتط الحب بالعلمة العاشقة حتى تنظم الشعر ، فتبعث إلى الرافعي بقصائدها ليرى رأيه فيها ... بين يدي الساعة آخر رسالة من رسائلها إلى الرافعي . بعثت بها إليه قبل منعه بقليل . ليت شعري كيف انتهت قصة هذا الحب ؟

٣ — وهذه رسالة من (حلب) يدهش كاتبها أن يرى صورة (الشيخ) مصطفى صادق الرافعي مطربشاً حليق اللحية أنيق الثياب ، فيكتب إليه :
« ... لقد رأيت رسمك يا مولاي فتأملته ... فوجدته من أناقة الجلباب ومظهر الشباب على حظ . فهل لك يا مولاي في مجارة المدينة ومماشاة الحضارة رأى دعاك إلى هذا الظهر الأنيق ... ؟ »

٤ — وتلك رسالة من (دمشق) وقع كاتبها في هوى مغنية مشهورة ، يحسن بها الظن إحساناً يمثلها لعينيه ملكاً أنثى ! لا يترك مجلساً من مجالس غنائها ، ولا يفكر في خلوته إلا فيها ... ثم يأتيه النبأ أنها قد سُميت على رجل من ذوى اليسار والنعمة ، وأنها موشكة أن تصير له زوجة ، فيطير به هذا النبأ ويؤله أيماً إبلام ؛ فيكتب إلى الرافعي يقول :

« ... إن خطيبها على غناه رجل فاسد الخلق ، متقلب القلب ، دنس الذليل ؛ وأنا على يقين أنها ستشقى به وقد خفيت عنها حقيقته . وأنا أحبها وأشفق عليها وأعنى لها السعادة ... »

« هل يجب على أن أقف وقفة المحذر بإقناعها بالمدول عن هذا الزواج الذي لا أتوقع له إلا نهاية واحدة قريبة ، أو الزم الصمت وأدع الأمور تجري في مجاريها وأقطع علائقي معها فأرد لها صورها ورسائلها احتراماً لهذا الزواج من الناحية الشرعية وأدفن ذلك الحب لها في ركن من أركان قلبي ؟ »

٥ — وذلك طالب في الجامعة ، له دين وخلق ومروءة ، بلغ مبلغ الرجال .

وفار دم الشباب في عروقه ، فتسلطت عليه غرائزه ، تغالبه شهواته فلا يكاد يغلّبها ، ولا يجد له سلطاناً على نفسه أو وسيلة لقمع شهواته إلا أن يحبس نفسه أياماً في غرفته الموحشة ، ومع ذلك لا تزال (المرأة) تتخيل له بزيتها في خلوته وفي جماعته ، فليس له فكر إلا في المرأة ، وإنه ليخشى الله ، وما به قدرة على الزواج ، ولقد جرب الصوم فما أجدى عليه ، وقد أوشك أن يفقد نفسه بين شهوات تتجاذبه ودين يأبى عليه ... فماذا يفعل ؟

٦ — وهذه فتاة متعلمة ، تعيش بين أبيها وزوج أبيها في هم لا يطاق ، كل سلوتها في حياتها أن تقرأ ، وهي لا تحسن عملاً ولا تجد لذة في عمل غير القراءة ، ولكنها تنكر موضعها بين أبيها وزوجه ، إنهما ينكران عليها كل شيء مما تراه هي من زينتها بين الفتيات ، فعملها حذقة ، وآراؤها فلسفة فارغة ، ومطالباتها عبث وهو وسوء خلق ، وفرارها بنفسها إلى غرفتها كبرياء وأنفة ! وتمضي السنون وهي في هذا العذاب من دار أبيها ، فلا هي تستطيع أن تحمل أباه وزوجه على رأيها في الحياة ولا هي تستطيع أن تنزل إليهما ، والمنقذ الذي تنتظر الخلاص على يديه من هذا العذاب لم يطرق بابها بعد ، ولو أنه طرق بابها لأشاحت عنه معرضة في وجل ، لأنها تسيء الظن بكل الرجال . فماذا تفعل ؟

٧ — وهذا فتى مثالي يحسن الظن بالأيام ولكن الأيام تخلفه مواعده : أحب فتاة من أهله وأحبته وتواعدا على الزواج ، ولكن أهلها زوجها من غيره .
والتمس الوظيفة التي يؤمل أن يصل إليها بعد تخرجه ، فنالها ولكنه وجدها غُلاً في عنقه وكامة على فمه

وطلب الزلفى إلى الله بالإحسان إلى الناس فبادلوه إساءة بإحسان وغدراً بوفاء وكما غرس زهرة هبت عليها أعاصير الحياة فاقتلعتها وألقها في مواطن النعال وبرم بالحياة وضاعت به الدنيا وما يزال في باكر الشباب ... فماذا يصنع ؟

٨ — وهذا شاب يشهد لنفسه بأنه من عباد الله الصالحين ، يخاف الله ويخشى عذابه : أحب فتاة من جيرته حباً (عُذرياً) وأحبته ، وبرح بهما الحب حتى

ما يطيقان أن يمضي يوم دون أن يلتقيا ، ولقيته ذات مساء في خلوة بعبيدين عن أعين الرقباء ، وما أكثر ما التقيا في خلوة ، ولكن الشيطان صحبهما هذه المرة إلى خلوتهما ... ووقعت الجريمة من غير أن يكون لها إرادة أو يكون له ...

... ولما فاءت إليه نفسه أخذ يكفكف لها دموعها وهو يبكي ! وكان في نيته أن يتزوجها حين ينتهي من دراسته بعد سنتين أو ثلاث ، وكان صادقاً في نيته ، وكانت الفتاة مؤمنة بصدقه ، ولكنها لم تُطق الانتظار حتى تمضي السنوات الثلاث ولم تطق أن تراه بعد ؛ وجاءه النبا بعد ثلاثة أيام أنها ماتت محترقة ...

وعرف هو وحده من دون أهلها ومن دون الناس جميعاً كيف ماتت ... ومنذ ذلك اليوم تلاحقه صورتهما في نومه وفي يقظته ؛ ومضت سنتان منذ وقعت الفاجعة ولكنه ما يزال يذكرها كأنها كانت بالأمس ، وكتب إلى الرافعي يقول في رسالته :

« ... إنني أنا الذي قتلتها ، إن دمها على رأسي ؛ لقد ماتت ولم يعلم بسرها أحد غيري وهذا أشد ما يؤلني ، ولقد احتملت بصبر وثبات كل ما نالني في هاتين السنتين من تأنيب الضمير وعذاب القلب ، ولكنني اليوم أحس بأن صبري قد انتهى ولم يبق لي قوة على الاحتمال أكثر مما احتملت ... فماذا أفعل ... ؟ »

ألوان وصور ، وملائكة وشياطين ، ونفوس تتمذب ، وقلوب تحترق ، وأنات وابتسامات ، ودنيا لم يكن للرافعي بها عهد ، ولم تكن تخطر له على بال .

وثمة لون آخر من الرسائل :

... المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم ... شاب له خلق ودين ، وفيه اعتزاز بالمربية والإسلام ؛ فهو من ذلك يحب الرافعي وينتصر له ، ويتبع بشوق وشغف كل ما ينشر من كتب ومقالات . ولكنه مع ذلك يحب العقاد وينتصر له ، ويراه صاحب مذهب في الشعر ورأى في الأدب جديراً بأن يتأثر خطاه ويسير على نهجه . وليس عجيباً — فيما أظن — أن يجتمع الرأي لأديب من الأدياء على محبة الرافعي والعقاد في وقت معاً ، كما أنه ليس عجيباً أن يتعادى الرافعي والعقاد أو يتصافيا

ما دام لكل منهما في الأدب طريق ومذهب ؛ ولن يمنع ما بينهما من العداوة ، أو من الصفاء ، أن يكون لكل منهما قراؤه المعجبون به ، أو يكون لها قراء مشتركون يعجبون بما ينشئ كل منهما في فنون الأدب ؛ وإنما العجيب أن يبلغ إعجاب القارىء بالكاتب الذي يؤثره إلى درجة التعصب ؛ فلا يعتبر سواه ، ولا يعترف لغيره بأن يكون له مكان بين أهل الأدب .

على أن شأن صاحبنا المحامى الشاعر الأستاذ إبراهيم مع الرافعى والمعقاد يبعث على أشد العجب وأبلغ الدهشة ... إنه يحب الرافعى ويؤثره ؛ ويعجب به إعجاباً يبلغ درجة التعصب ؛ وإنه يحب المعقاد كذلك ، ويعجب به ، ويتمصب له ... لكل منهما في نفسه مكان لا يتسع إلا له ، ولا يزاحمه فيه خصمه ؛ ولكنه يجبهما معاً ، ويتمصب لهما معاً !

رأيان يتوائبان ، وشخصيتان تتناحران ، وإسراف في التعصب لكل منهما على صاحبه ؛ فأين يجد نفسه بين صاحبيه اللذين يؤثر كلاهما بالحب والإعجاب والأستاذية ؟

صورة طريفة وقعت عليها فيما وقعت بين رسائل الرافعى !

هذه رسالة من الأستاذ إبراهيم إلى الرافعى يقول فيها (١) :

« سيدى ، إننى أحبك ، وأعجب بك ، وأتعصب لك ، ولكن موقفك من

المعاد ياسيدى ... ليت شعرى لماذا تتخاصمان ؟ ... لقد كنت على حق ... ولكن

المعاد على حق ... هل تأذن لى أن أكون رسول السلام بينكما ؟ »

ثم لا تمضى أيام حتى يعود فيكتب إلى الرافعى رسالته الثانية : « معذرة . إنك

لتتجننى على المعقاد تجنيا ظالماً ، فما لك وجه من الحق في عدائه والحملة عليه . لقد

عقمت العربية فلم تنجب غير المعقاد ... وإنك أنت ... إنك كبير في نفسى ، كبير

جداً ، وإنى لأقلب تاريخ العربية بين يديّ فلا أجد غير الرافعى ... أنت ...

والمعاد ... أين ترى يكون اللقاء ؟ »

(١) ليست الرسائل تحت يدي في اللحظة التى أكتب فيها هذا الفصل ، ولكن ما أحكيه

بعد هو ترجمتها في نفسى كما قرأتها منذ قريب

وعلى هذا المثال قرأت لصاحبنا المحامي الشاعر بضع رسائل بين ما خلف الرافعي من أوراق ، تملأ النفس عجباً ودهشة . وآخر ما وصل إلى الرافعي من رسائله ، رسالتان ، كتب إحداها في المساء ، وكتب الثانية في صباح اليوم التالي ، ولولا خط الكاتب ، ونوع الورق ، وخاتم البريد ، لما حسبتهما إلا رسالتين من شخصين لو أنهما التقيا في الطريق لتضاربا بالأفك ! ... !

على أن الرافعي مع ذلك كان يرد على رسائله ! وددت لو ينشر صاحبنا بعض رسائل الرافعي إليه^(٢) !

والآنسة الأدبية (ف . ز) معلمة في إحدى مدارس الحكومة ، كان أبوها زميلاً للرافعي في محكمة طنطا ، وكان بينهما صلة من الود ، فلما مات لم تنس ابنته صديق أبيها ، فكانت تستعينه في بعض شئونها ، ومن ثمة نشأت بينهما مودة ، فكانت ترأسله ويرأسلها ، ومن رسائلها إليه كان له علم جديد في شئون وشئون . صحبتته إلى زيارتها مرة في ليلة من ليالي الشتاء ، مع الصديقين كامل حبيب وسعيد الرافعي ؛ فلقيناها مع بعض صديقاتها ، وكانت جلسة طالت ساعات ، أعتقد أن الرافعي قد أفاد منها بعض معانيه في قصة « القلب المسكين ! »

... وقد أنشأت هذه الرسائل بين بعض قرائه وبينه صلوات عجيبة من الود ؛ فهو منهم أب وصديق ومعلم ومشير ؛ وجلس على « كرسى الاعتراف » فترة غير قصيرة من حياته تفتحت فيها عيناه على كثير من حقائق الحياة لا يبلغ أن يصل إليها من رحل وطوفان وكان له في كل دار أذن وعلى كل باب رقيب عتيد ! ولست بمستطيع أن أفسر سر هذه الثقة العجيبة التي ظفر بها الرافعي من قرائه ؛ ولكني

(٢) لا نشر هذا الفصل في مجلة (الرسالة) ، بعث إلى المحامي الشاعر الأستاذ إبراهيم برسالة ، فيها عتب وفيها أدب ؛ وفيها إلى هذين حديث لا أدري أيقصد به أن يثبت هذه الرواية أو ينفيها؟ ثم عني بنشر رسائل الرافعي إليه ، على شرط أن تنشر إلى جانبها رسائله ، ولقد كان يسرني أن أعرف بماذا رد الرافعي ، ولكن الوفاء بشرطه ليس لي به سلطان ؛ وإنه ليستطيع أن ينشر ما يشاء حيث يشاء !

أستطيع أن أن أجزم بأنه كان أهلاً لهذه الثقة ؛ فما أعرف أنه باح بسرّ أحد فسماه أو عرف به ، وما أطلع على رسائل قرائه أحداً غيرى ، إلا قليلاً من الرسائل كان لا يرى بأساً من إطلاع نفر قليل من أصحابه عليها لغرض مما يستجره إليه بعض الحديث في موضوعها ؛ بل إن كثيراً من هذه الرسائل قد أخفاه عني — وما كان بيني وبينه حجاب أو سرّ — فما عرفت خبرها إلا بعد موته . ويستطيع أصحاب هذه الرسائل أن يطمئنوا إليّ ؛ فستظل أسرارهم — في يدي — مصونة عن عيون الفضوليين ، فلن أتناول الحديث عنها إلا من حيث يدعوني الواجب لجلاء بعض الحقائق في هذا التاريخ .

وكان له مراسلون دائمون ... يجدون الكتابة إليه جزءاً من نظام حياتهم ، فلا تنقطع رسائلهم عنه ، ولا يخفى عليه شيء من تطورات حياتهم ، وقد أكسبهم طول العهد بالكتابة إليه شيئاً من الأناقة والاطمئنان إليه كما يطمئنون إلى صديق عرفوه وجربوه وعاشوه طائفةً من حياتهم ؛ وإن القارىء ليلمح في هذا النوع من الرسائل الدورية التي كان يبعث بها إليه هؤلاء الأصدقاء الغرباء ، مقدار ما أثر الرافعي في حياتهم منذ بدأت صلّتهم به ، فتطورت بهم الحياة تطورات عجيبة ؛ وأدّى الرافعي إليهم دينه وأثر فيهم بمقدار ما كان لهم من الأثر في أدبه وفي حياته الاجتماعية . وإني لأضرب مثلاً لواحدة من هؤلاء الأصدقاء :

هي فتاة من أسرة كريمة في دمشق ، نشأت في بيت عز و غنى وجاه ، وهي كبرى ثلاث نساء نشأة يفاخرن بها الأتراب ؛ ثم تقلبت بهن الحياة فإذا هن بعد الغنى والجاه ناس من الناس ، واضطرت الكبرى أن تخرج إلى الميدان عاملة ناصبة لتعول أسرتها ، وكان لها من ثقافتها وتربيتها معينٌ ساعدها دون أختها في ميدان الجهاد ؛ وعلى أنها كانت أجمل الثلاث وأولاهن بالاستقرار في بيت الزوج الكريم ، فقد سبقتها أختها إلى الرفاء والبنين والبنات وظلت هي . . . وما كان ذلك لميب فيها ، ولكنه سرٌّ لم يلبث أن انكشف لعينيها : لقد كانت هي وحدها ، من دون أختها ، التي تستطيع أن تعول أسرتها لأنها عاملة . . . وتأملت

حين عرفت السرّ، ولكنها كتمت آلامها وظلت « صابرة » ، ومضت الأيام متتابعة والأمانى تخلف موعدها ؛ وتحركت فيها غريزة الأمومة ، ولكنها قمعها بإرادة وعنق ومضت تصارع الطبيعة وتتحدى القدر بعزيمة لا تلين ؛ ولكنها لم تلبث أن أحسّت بوادر الهزيمة بعد طول الكفاح فشرعت قلمها وكتبت رسالتها الأولى إلى الرافعى بإمضاء « الصابرة » .

وقرأ الرافعى رسالتها ، ثم قص علىّ خبرها وتندّت عيناه بالدمع وهو يقول :
يا لها من من فتاة باسلة !

وأجابها على رسالتها بتذييل صغير فى حاشية إحدى مقالاته فى الرسالة ... وعادت تكتب وعاد يجيبها ، وتواترت رسائلها ورسائله وقد كتم اسمها وعنوانها عن كل أحد — وكانت كتبتّه إليه فى ورقة منفصلة فى إحدى رسائلها ليمزقه وحده إن عناه أن يحتفظ برسائلها — وكان الرافعى لها كما أرادت : أباً وصديقاً ومرشداً ومشيراً ؛ ولم يابّ عليها فى بعض رسائله أن يتبسّط فى الحديث إليها عن قصة « القلب المسكين » لعلها تجد فيها يكتب إليها من شئونه عزاءً وتسلية ... وتعزّت المسكينة عن شىء بشىء ، وثاب إليها الاطمئنان والشعور بالرضا ، وبدأ فى رسائلها لون جديد لم يكن فى رسالتها الأولى ، وأخذت تكتب إليه عن كل شىء تحس به أو تراه حولها ، وتستشيريه فيما جلّ وما هان من شئونها : فى سفرها ، وفى إقامتها وفى رياضتها ، وفى عملها وفى يقظتها ، وفى أحلامها ... فى كل شىء كانت تكتب إليه ، سائلة ومجيبة ، ومخبرة ومستشيرة ، حتى فى صلاتها مع صديقاتها وأصدقائها ، وفى الخطّاب الذين يطرقون بابها يطلبون يدها ... ولم يكن يرضنّ عليها بشىء من الرأى أو المشورة ...

وكان للصابرة جزاء ما صبرت ، وتحققت أمانها على أكل ما تحققت أمانى فتاة ، وجاءها العروس الذى لم تكن أحلامها تتناول إليه فى منامها ، وبرق فى إصبعها خاتم الخطبة ، فانبهرت منه عيون ! ... لا أريد أن أذكر من صفات خطيبها

حتى لا أعرف بها وبه ، فليس من حق أن أكشف ما تريد هي أن يظلّ مستوراً..
لو قلت إن خطيبها كان وزيراً لما بعدتُ !

واستمرت تكتب للرافعي والرافعي يجيبها ... حتى رسائل خطيبها إليها كانت
تبعث بها إلى الرافعي ليشير عليها كيف تجيب ، وحتى برنامجها قبل الزفاف وبعده
كان بمشورة الرافعي ورأيه ...

وجاءته آخر رسالة منها مؤرخة في ٣/٤/١٩٣٧ (نعي الرافعي في ١٠/٥/١٩٣٧)

تقول فيها :

« الصديق الكريم ...

« ما أحلى دعوتك يا صديقي وما كان أشدها تأثيراً على نفسي ! لقد شعرت
وأنا أقرؤها بسرور عميق ، وتركز في ذهني أن هذه الدعوة مقبولة ... ما أسعدني
إذا صرت في المستقبل أمّاً .

« أعتقد أنك تعرف تماماً أن حنيني للزواج فيما مضى ، وتمردى وثورتي على هذه
الحياة ، لم تكن إلا لأنني رأيتُه وسيلة للحصول على الطفل ؛ فقد تنبّهت في غريزة
الأمومة بشكل هائل ؛ تصور يا أستاذي ، صرت أكره الأطفال لأنني ليس لي
بينهم ولد ؛ وكنت إذ أرى أمّاً تعانق طفلها وتضمه إلى صدرها أحس بألم مرير
يحز قلبي ويكاد يقطعه . وكثيراً ما كنت أتشاغل وأشيح بوجهي حتى لا تقع
عيني على هذا المنظر . لست حسودة والله ، ولكن شدة إحساسي كانت تجعلني
بهذا الوضع ... أما الآن فأنا مسرورة لأقصى حدود السرور ، وأتمنى لو أثمر الخير
والسعادة على الجميع ...

« ... والله يعلم أن ليس لي أي غاية مادية من وراء هذا الزواج ، وليس قصدي

منه إلا الحماية والستر ، لأنني مللت ومرض قلبي من فضول الناس ... »

وكانت على نية زيارة مصر لتزور الرافعي مع زوجها ، اعترافاً بحقه عليها ،
ولكن القدر لم يمهلها حتى يحين الموعد ، وحان أجله ولم ينظر بعينيهِ الفتاة
التي تبناها على بعد الدار وشغلته أحزانها بضع سنين ، فلما ابتسم لها القدر

وتحقت أحلامها، ناداه أجله قبل أن يشاركها في ابتسامة الفرح وتهاني المسرة...
تقول له في رسالتها المؤرخة ١٥/١/١٩٣٧ :
« الصديق الكريم ...

« ... ولماذا أخشى هذه المقابلة يا أستاذ؟ وهل أنت مخيف لهذه الدرجة...!
على كل حال إذا وجدت ما يعرّبني فسأخّتي وراء فلان^(١) ولا بد أنه يحسن
الدفاع عني . لا ، لا ، سألبس درعاً متينة تقيني (شرّاً) هذه المغناطيسية القوية ،
ولكنني أخاف يا أستاذي أن يكون الحديد أكثر انجذاباً ، وأكون حينئذ أسأت
من حيث أردت الإحسان ... صحيح أنني معجبة ، ولا أزال ، وسأبقى دائماً ،
ولكن ألا ترى أن الإعجاب و ... قد يتفقان أحياناً وقد يختلفان ؟ ثم أليس ل...
معان كثيرة وأساليب عديدة ... ؟

« تريد رأيي في صاحب القلب المسكين ؟ أنت تعرفه جيداً فلماذا تريد
إجراحي ... ؟

« الجمال ليس مدار بحثنا ، وليس له أهمية قل أو أكثر ، ومع ذلك فصاحب
القلب المسكين يتمتع بقسط وافر منه . اسمع ، سأبدى رأيي . لا لا ، ما يدبّي
أقول ، أستحي ... !»

وكانت تعرف من أمره مع (فلانة) ما قص عليها في رسائله . وفي رسائلها
حديث كثير عنها ، وقد زارتها مرة عن أمره لتنبئه بخبرها ...

وأعتقد أن في رسائله إليها ما يكشف بعض النموّض في قصة الراقية و (فلانة)
ويكون فيه برهان إلى براهين لدينا ؛ فحبذا أن تتفضل السيدة الكريمة بالنزول
عن حقها في هذه الرسائل فهديها إلينا لئلا نتم لنا بهذه الحلقة المفقودة سلسلة التاريخ !
إنها أديبة وعالمة ، وإنها بذلك لتعرف حق التاريخ وحق الأدب عليها في هذه

الرسائل ، ولها علينا ما تشترط فتُوفيه ، فلعل صوتي أن يبلغ إليها في مأمنها .
ضمن الله لها سعادتها وحقق لها ما بقي !

هذه قصة فتاة يجد القارىء بين أولها وآخرها أشتاتاً من تاريخ الرافي ؛ وفيها
مثال بين معنى ما سميته (النقلة الاجتماعية) في حياة الرافي بما كان بينه وبين
قراءه من صلة الرسائل . على أن هذه القصة بخصوصها كان لها من عناية الرافي
حظ أيُّ حظ . وقد كان على أن يكتب — بما اجتمع له من فصول هذه القصة —
مقالة بعنوان « الصابرة » جمع لها فيما جمع من نثار الأفكار قدراً غير قليل ،
وما أخّره عن كتابتها إلى أن وافاه الأجل ، إلا انتظار الخاتمة فيما أظن ، وإلا شدة
احتفاله بهذا الموضوع . وهكذا نجد شدة احتفال الرافي بموضوع مما تكون
سبباً في تعويقه عن كتابته أو عن تمامه .
كان يحتفل بكتابه « أسرار الإعجاز » فلم يتم ، وبمقالتي « الزبال الفيلسوف »
و « الصابرة » فلم يكتبهما ؛ ولكن التاريخ لم ينس له .

